الإيمان والوعي

إن من يؤمن بفلسفة إيديولوجية معينة يجد نفسه مضطراً للخضوع لتعليمات عقائدية ومعايير حياتية تتحكم في سلوكياته وتحدد مواقفه من الذات والغير والمستقبل. وهذا يقوده من حيث لا يدري إلى وضع يفرض عليه أن يصبح عبداً لما يؤمن به من أفكار فلسفية، وتابعاً للمهيمنين على تلك الأفكار من قادة إيديولوجيين، أي عميلاً لما تجسده الفلسفة من أفكار وتوجهات وزعامات. لكن الإيمان بفكرة بلا وعي، أي من دون فهم حقيقي لمغزى الفكرة وأهدافها ومراميها، والتبعية لزعيم دون معرفته عن قرب ومعرفة ميوله الحقيقية ومدى إخلاصه لما ينادي به من مبادئ، فمن شأنه أن يجعل التابع مجرد أداة في يد الزعيم وخادماً له. ولما كان من طبع الخدم أن يتنقلوا من خدمة سيد لآخر، وأن يغيروا ولاءاتهم بسرعة كلما اقتضت الظروف، فإن الخادم والتابع لا يمكن أن يخلص لسيد أو زعيم أو قضية طويلاً. وحين يأتي الإيمان من دون وعي حقيقي، وتأتي التبعية من دون معرفة سليمة، فإن التابع يجد نفسه تائهاً مكتوف الأيدي، يشك فيما يؤمن به من أفكار وفي من يتبعه من زعماء. وهذا يجعل حياته مفرغة من هدف نبيل يسعى لتحقيقه وقضية تستوجب الدفاع عنها، ما يدفعه إلى إقناع نفسه بسلامة القيد والقبول بما يترتب عليه من نتائج، أو إلى البحث عن أفضل الطرق وأقصرها لفك قيده وتحرير نفسه. لكن تَعوُّد إنسان على التبعية، وعدم تعوده على الاستقلال، وفشله في تذوق طعم الحرية يجعله قابلاً للتحول من فكرة لأخرى أكثر ضبابية قد تكون متناقضة مع الأولى، ومُستعداً للإرتماء في حضن زعيم آخر أكثر قسوة، وقد يكون أقل اخلاصاً لعقيدته من الأول، وأكثر أنانية واستصغاراً للتابعين.

إن اكتشاف مؤمن تابع لحقيقة أمره وأمر ما يؤمن به من أفكار ومن يتبعهم من زعماء، يدفعه عادة إلى الانقلاب على نفسه وعلى فكره وعلى زعاماته. لذلك كثيراً ما نلاحظ أن البعض ينقلب بسرعة مذهلة من النقيض إلى النقيض، من الإيمان إلى الإلحاد، من الاشتراكية إلى الرأسمالية، من القومية إلى العنصرية الإثنية، من السعي للسلم إلى النزوع إلى الحرب وممارسة العنف والإرهاب. وخير مثال على انتقال التابع من موقف إلى موقف نقيض ما حدث لأتباع الحركة القومية العربية بعد عام 1967. إذ في ضوء هزيمة العرب في تلك السنة، تراجع زخم الحركة القومية، ما دفع الكثير من أتباعها والمؤمنين بها إلى الانقلاب على أنفسهم والدخول قفص التبعية للتيار الديني... انقلاب على الفكرة العلمانية المنفتحة على الآخر والعالم لصالح الفكرة الدينية المنغلقة على الذات والآخر... تحول من الدعوة للحرية وفصل الدين عن الدولة إلى الدعوة للالتزام بشريعة غيبية لا مجال لحرية فيها. وبعد سقوط الماركسية وتفكك الاتحاد السوفييتي فيما بين عامي 1989-1991، شهدت أوروبا الوسطى

والشرقية أكبر موجة هجرة من الفكرة الاشتراكية ومبادئها الداعية إلى العدالة الاجتماعية والحرية إلى النظام الرأسمالي الذي يعمل بوعي على استغلال الفقراء والضعفاء لصالح الأثرياء والاقوياء.

إن الإنسان العاقل الواثق من نفسه لا ينتقل بفكره ومشاعره من النقيض إلى النقيض، لأن خيارات الحياة كثيرة وغنية في تنوعها وأصالتها. إن كل عقيدة، بغض النظر عن طبيعتها وأهدافها، هي بمثابة سجن بلا نوافذ تطل على حديقة أو بحر، وبلا أبواب يفتحها السجين بإرادته متى شاء، وبلا نسيم يجدد هواء المكان. وفي الواقع، كلما مكث الإنسان في سجن العقيدة طويلاً كلما أصبح هواء السجن أكثر تلوثاً، والعقل أكثر ارتباكاً، والعلاقة مع السجان أكثر فساداً وتبعية. حتى حين تقوم علاقة السجين بالسجان على الحب، فإن الحب في هذه الحالة يكون حباً لقيود وعبودية تعود عليها السجين ولم يعد يعرف لها بديلاً. إن التعود على السجن يجعل السجين مريضاً بمرض الوحدة، وبالتالي بحاجة إلى رفيق يثق به، ما يجعله يرتاح إلى السجان، ويتعلق به، ويطيع أوامره بشكل أعمى، ويرضى عنه مهما فعل، حتى حين يقوم بعقابه بلا سبب.

إن على الإنسان أن يعي أن الحياة تغص بالخيارات ذات الألوان والأشكال والأهداف والمتطلبات كثيرة التنوع. لذلك لا تنحصر خيارات الإنسان في الحياة بين الأبيض والأسود، الخير والشر، العدل والظلم، الليل والنهار، الخطأ والصواب، الحلال والحرام، بل تتجاوز كل ذلك لتشمل كل أطياف قوس قزح، وفضاءات العلم والحرية والفن والفكر والابداع. وهذه خيارات تنبع من داخلنا، تعيش في قلوبنا وعيوننا ونصنعها بعملنا وفكرنا الخلاق. ومع أن الشك يسود كافة الخيارات في الحياة، إلا أن الشك هو المفتاح الوحيد القادر على كسر أبواب السجون العقائدية، وتحرير الإنسان من ظلمها وظلامها.

د. محمد ربيع www.yazour.com